مجلة كلية
الدعوة الإسلامية
مجلة إسلامية - ثقافية - جامعة
العدد الرابع
1987

- بين داعٍ ومبشّر
- نظرية المعرفة عند مفكري الإسلام
- الألمان والقرآن
- بعض علماء النفس يعودون إلى رشدهم
- نصوص أجنبية مترجمة

إتجـاه في الأدب والفن

الدكتور عماد حاتم

اتجـاه ، من فعل « اتجـه » ، وجاءَ في اللسـان « اتجه لـه رأي أي سنح وهـو افتعل ، صارت الواو ياء لكسرة ما قبلها ، وأبدلت منهـا التاء وأدغمت » واتخـذت الكلمة معنى اصطلاحياً في العصر الحاضر فصارت تعني التيار العام الذي تتجه فيه الأفكار والأذهان والأذواق في وجهة أو مسار معـين تجمعها مـلامح محـدَّدة ومشتركـة خلال مرحلة من مراحل التـاريخ . ومصـطلح « اتجاه » كثـير التردد في الـدراسات العلمية الحديثـة يزيـد من انتشاره تـطلع الانسان نحـو المزيـد من البحث والمعرفـة وحركة الفكر الانساني نفسها . فالاتجاه الفكري يتعرض عادة لظروف معينة تحـرفه عن مساره وتسير به باتجاه او اتجاهات جديدة تكتسب مع الزمن ملامحهـا ومكونـاتها الخاصة وقـد تنفرط عنهـا اتجاهـات جديـدة وهكذا ؛ إلا أننـا نبقى في العادة امـام اتجـاهين رئيسـين ـ الكلاسيكي والجـديد . ويحمـل الاتجاه الكـلاسيكي (من كلمة لاتينيـة تعني ما ينسب إلى الـطراز الأول) معنيين ـ أحـدهما التقليـدي والاميـل إلى التراث القديم والآخر ـ كل مـا هو أصيـل وجيد وثـابت الجدارة . وبهذا المعنى يضم الاتجاه الكلاسيكي في الأدب العربي كلًّا من المتنبي والمعري وطه حسين أيضاً . . .

أما الاتجاهات الأدبية في العصر الحديث فعـادةً ما يجـري الحديث عنهـا . في منظور إحصائي فنسمع باتجاه الرومانسية والواقعية والبرناسية والسوريالية والطبيعية والرمزية والسينتيمنتالية والتكعيبية والوجودية والمستقبلية وغيرها من الاتجـاهات التي يكاد الباحث أن يضيـع فـي محاولـة وضع الحـدود فيا بينهـا ، إلا أن بالامكـان أن

نتوصل إلى التعريف المنشود إذا ما حددنا الاتجاه الأدبي برؤية الأديب إلى العالم ، فبعض الأدباء يغلّب العنصر الذاتي في الأدب (وفي الفنون الأخرى) ويحاول تصوير العالم من خلال ذاته وبعضهم يغلّب العنصر الموضوعي فيحاول أن « يحتجب » شخصياً ليظهر بدلاً منه الواقع الموضوعي فيفرض نفسه أمام القارىء . وهكذا يقوم الاتجاه الأول ـ وهو « الرومانسية » (جاءت من الكلمة الفرنسية « رومان » وتعني الرواية لأن أدب هذا الاتجاه أقرب إلى ما في بطون الكتب والروايات منه إلى ما في الواقع) على أساس رفض الأديب للعالم لأسباب سياسية أو اجتماعية أو نفسية واستبدال الواقع بمثل أعلى ينطلق من ذات الأديب ولهذا نجد من الرومانسيين من اتجه إلى الحديث عن المشاعر الفردية والآلام الانسانية ومنهم من اتجه إلى الطبيعة أو إلى حياة الانسان البدائي العفوية في الغابات ومنهم من هاجر إلى الماضي أو اندفع إلى الثورة وقرر استبدال العالم بعالم أفضل منه . وهكذا اتفق الرومانسيون على رفض الواقع وفرض كل منهم مثله الأعلى وامتدت ثورتهم إلى عالم الصيغ الأدبية وادخلوا كثيراً من التطوير في عالم اللغة أيضاً وبالغ بعض الرومانسيين في تمردهم على الواقع المحيط فصاغوا اتجاهات جديدة منها الرمزية والسنتيمنتالية (العاطفية) والتكعيبية والوجودية واتجاه الفن للفن (البرناسية) وهي في نهاية المطاف صور من هذا الاتجاه الذاتي المفرط في الذاتية . أما الواقعية فهي اتجاه آخر يعتمد على عرض الواقع من خلال النماذج المختلفة المتلونة التي يراها الأديب جديرة بعرض الصورة الكاملة عن هذا الواقع . والواقعية بهذا المعنى ليست التصوير الفوتوغرافي (وبالتالي السطحي) بل تلمُّس النسخ الداخلية التي تسيّر هذا الواقع واستقراء قوانينه العامة لأن الواقعية هي الصدق مع القوانين العامة للحياة وليس مع حادثة مفردة من حوادثها فهي بهذا المعنى ـ عرض النموذجي الجوهري لا العرضي الظاهري والكتابة عن الحياة من خلال قوانينها لا من خلال احداثها العابرة . والنموذج الذي يتناوله الكاتب لا بد وأن يستوفي شروط التفرد ويشتمل الملامح الفردية التي تحدد شخصيته الواحدة وتربطه بزمانه ومكانه وبيئته المحلية إلا أنه يجب ان يكون في الوقت نفسه تعبيراً عن أمور أوسع من هذه الحدود الفردية ولهذا شبه بعضهم النموذج الواقعي بـ « القانون » بالنسبة للعالم ، والذي لا يعبّر عن ذاته فحسب بل وعن فعالية عناصره في حالات كثيرة مكرورة . وقد استطاعت الواقعية (وخاصة في الرواية والمسرح) أن تكشف ارتباط الانسان بالظروف الاجتماعية وتجاوزت القوالب التي كانت قد فرضتها التقاليد الأدبية

السابقة ووسّعت نوعيات الأبطال وفتحت أبواب الأدب للفئات الاجتماعية من البسطاء والفقراء ممن أهملهم الأدب قروناً طويلة ، وهذا ما فرض على الأديب أن يكون قادراً على استبطان شخصيات الآخرين ولم تعد براعته مقصورة على التعبير عن مشاعره الذاتية . أما الاتجاهات التي انفرطت عن الواقعية فيمكن أن نسمي من بينها « الطبيعية » التي تمثل مرحلة انحطاط الواقعية إلى التوافه والاهتمام بالجزئيات والالحاح على الدوافع المظلمة في الانسان و « الواقعية الاشتراكية » وهي تعني الواقعية ولكن في مستوى جديد من التطور كما أنها تمتاز ببطلها الذي يجب أن يتسم بالكفاح لا أن يقنع بالتشابه مع الآخرين وقبول مصائرهم .

ومثلما نلتقي بكلمة « اتجاه » في عالم الأدب نلتقي بها في عالم النقد وخاصة منه النقد الحديث . فالتطور الكبير في عالم المعرفة أدى إلى فتح آفاق علمية كبيرة تركت انعكاساً لها على مختلف مجالات الحياة الانسانية وكان ذلك من الاسباب التي دفعت إلى الأخذ بمناهج العلوم وتطبيقهاعلى النقد الأدبي والملاحظ على هذه الاتجاهات ـ تطرفها وادعاؤ ها الاحاطة بما يلزم للنقد فمنها ما يسمى بالاتجاه « العلمي » الذي اعتمد على الافادة من معطيات العلوم) الطبيعية (الحيوانية والنباتية) وقال بأن الأدب يخضع الإنسان ـ شأن الحيوان والنبات ـ للمؤثرات الخارجية وخاصة من ذلك البيئة والمكان والجنس وبذلك ألغي دور التجديد في الأدب بل وانتهى أصحاب هذا الاتجاه إلى القول بأفضلية بعض الأجناس البشرية على غيرها . وجاء الاتجاه « الانطباعي » في النقد ، وهناك من أسماه بـ « التأثري » ، وهو يقوم على أساس تحرير الأديب من أية مؤثرات خارجية لا تنبثق عن النص الأدبي نفسه وإلغاء الظروف الخارجية المحيطة والتوقف عند حدود الأنطباع الأولي الذي يتركه الأثر في نفس الناقد. وهذا ما أدى إلى ضروب من الانشائية التي أخرجت النقد من دائرة المنهجية والدقة . وكان للتطور الذي حصل في ميدان علم النفس في القرن الماضي وتطبيق نظرياته على الآثار الأدبية أن ظهر لدى النقاد اتجاه جديد أسموه « الاتجاه النفسي »في النقد وقد ألح على دراسة الدوافع الضمنية الغامضة الدفينة التي أثرت على الابداع الأدبي ووجهت بناءه وتركيب الشخصيات فيه بل وفي الادباء انفسهم وعلى أساس هذا الاتجاه كتب العقاد دراسته عن « أبي نواس» ثم ظهر الاتجاه الشكلي أو «البنيوي» أو «الجمالي» أو «الغني» في النقد. وقال أصحابه بأن غاية الأدب في ذاته وأن مهمته هي الاحساس بالجمال، وهذا ما لا

يمكن أن يتم إلا عبر الصياغة الفنية التي يتخذها العمل الأدبي؛ إذ أن العواطف البشرية والقضايا التي يدرسها الأدب تكاد تكون واحدة محدودة مكرورة، فالعبرة إذن في الصيغ التي تتخذها هذه الموضوعات في الأدب ، ولهذا عمدوا إلى تحليل الاصوات وقاموا بحسابات لأعداد المقاطع والجزئيات الصوتية في الشعر ولمدى تكرار هذا أو ذاك من الحروف وحاولوا أن يفرغوا الكلمة من وظيفتها التعبيرية ليدرسوا عناصرها اللفظية فقط . وكان هذا الاهتمام بالشكل أحد الدوافع إلى الانصراف نحو اتجاه جديد يعنى بالمضمون الأدبي وهو الاتجاه المضموني « أو « الاجتماعي » أو « الايديولوجي » في الفن وأكد أصحابه على ارتباط الأدب بالمجتمع وتشجيع توجه الأدباء إلى الجماهير والنهوض بها، كما حاولوا أن يبسطوا لأفكارهم باظهار ماهية المجتمع وطبيعته، وأكدوا على ضرورة الالتزام بالمضمون الذي يسمو بالإنسان واستعادوا لوحات الأدب القديم، وبينوا أنه كان يكتب في البلاط والعواصم واهتموا بالأبطال الشعبيين وبالأدب الشعبي واستوقفهم فهم الرواية والمسرحية لأنها أكثر استجابة لمتطلبات « النقد الأجتماعي ».

ويدعو النقاد المحدثون إلى الأخذ بمنهج اتجاه جديد هو « الاتجاه التكاملي » في النقد ويقوم على الأخذ بالقوانين النافعة في كل من الإتجاهات المذكورة، فأصحابه يهتمون بالظروف المحيطة بالأديب وآثاره كما يقولون بأن الالمام بعلم النفس يساهم في إنجاح العملية النقدية لأنه يعين على التحديد الدقيق للشخصية ويكشف مكونات الأديب وخاصة في مراحل الطفولة. أما دراسات المدرسة الشكلية فتمد النقد بمفاهيم جديدة عن الجمال ومقاييسه وعن الأسرار الثاوية في العمل الفني ومصدر شعور الانسان باللذة والانسجام في ذلك العمل. أما معرفة المنهج الاجتماعي فتدفع إلى التعمق في معرفة البنى ونوعيات الفئات الاجتماعية وانتماءات الأديب والظروف المحيطة كما تدفع إلى معرفة القناعات الفكرية للأديب والتي تترك أثرها المباشر في أدبه . وهكذا فان المنهج التكاملي يعني الإفادة من جميع المناهج بل أن اغفال أي واحد منها يمكن أن يسيء إلى فهم العمل الأدبي. وقد سار كبار النقاد العرب المعاصرين على هدي هذا الاتجاه النقدي الجديد : « الإتجاه التكاملي ».

المصادر

د. أحمد كمال زكي: النقد الأدبي الحديث ، أصوله واتجاهاته ـ دار النهضة العربية ، بيروت 1981 .

د. شوقي ضعيف : البحث الأدبي ، طبيعته ، مناهجه ، أصوله ، مصادره ـ ط 2 . دار المعارف ، القاهرة1972 .

د . علي جواد الطاهر : مقدمة في النقد الأدبي ، المؤسسة العربية للدراسات والنشر ، بيروت 1979 .

د . محمد ذكي العشماوي : قضايا النقد الأدبي بين القديم والحديث ـ دار النهضة العربية ، بيروت 1975 .

د. عبد القادر القط : الاتجاه الوجداني في الشعر العربي المعاصر ـ ط 2 دار النهضة العربية ، بيروت 1981 .

د . محمد مندور : في الأدب والنقد ـ دار نهضة مصر للطبع والنشر ، القاهرة . 1973 .

د . محمد غنيمي هلال : النقد الأدبي الحديث ـ دار الثقافة /دار العودة ، بيروت 1973 .